الفصل الثالث
قصة بني إسرائيل كما جاءت في توراة اليهود

قصة بني إسرائيل في مصر

تبدأ قصة بني إسرائيل في مصر بدعوة يوسف أباه وأخوته إلى العيش في مصر ، بترحيب ملك مصر بهم وأمره بإسكانهم في أفضل مكان فيها وكانت مصر في ذلك الوقت واقعة تحت حكم الهكسوس (١)

" فقال فرعون ليوسف : " لقد جاء إليك أبوك وإخوتك ، وأرض مصر أمامك ، فانزل أباك وإخوتك في أفضل الأرض ... وأنزل يوسف أباه وإخوته في مصر ومَلَّكهم في رعمسيس أجود الأرض كما أمر فرعون . وأمد يوسف أباه وإخوته وأهل بيت أبيه بالطعام على حسب عياله " (التكوين : ٤٧)

عاش بنو إسرائيل في مصر عيشة كريمة ، وامتلكوا فيها أملاكا وزاد عددهم .

"وأقام بنو إسرائيل في مصر في أرض جاسان واقتنوا فيها أملاكا وأثمروا وتكاثروا " (التكوين : ٤٧)

وأقام بنو إسرائيل في مصر نحو مائة عام في كنف يوسف في أمن وسلام وفي نعمة وإحسان .

---

(١) هناك شبه إجماع من المؤرخين على أن دخول بني إسرائيل مصر كان إبان احتلال الهكسوس لمصر

" وأقام يوسف في مصر هو وأهل بيت أبيه . وعاش يوسف مئة وعشر سنين حتى شهد الجيل الثالث من ذرية أفرايم وكذلك أولاد ماكير بن منسى "

(التكوين : ٥٠)

واستمرت الحياة هنيئة لبني إسرائيل في مصر حتى بعد موت يوسف وجميع أخوته لسنين طويلة ، وتعاظم عددهم .

" مات يوسف وإخوته جميعا وكذلك سائر ذلك الجيل . ونما بنو إسرائيل ، وتوالدوا وتكاثروا وعظموا جدا حتى اكتظت بهم الأرض " (الخروج : ١)

محنة بني إسرائيل في مصر

وبعد سنوات طويلة من عيش بني إسرائيل في مصر قام ملك جديد على مصر فسخرهم في الأعمال الشاقة ، ولم تذكر توراة اليهود – على غير العادة – سبب انقلاب ملك مصر عليهم (١) إنما أشارت إلى تخوف ملك مصر الجديد من كثرة عددهم ، وخوفه من انضمامهم إلى أعداء مصر ، وهذا التخوف ربما كان لدي ملك مصر شواهد تؤكده ، فجميع ما حاق ببني إسرائيل من عقاب – كما سيأتي بيانه – كان بسبب فسادهم ونبذهم لشريعة الله ، وما العقاب إلا تطهير من هذه الآثام ليعودوا إلى شريعة الله ويكفوا عن المعاصي .

" وما لبث أن قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف فقال لشعبه " فلنتآمر عليهم لكيلا يتكاثرون وينضمون إلى أعدائنا إذا نشب قتال ويحاربونا ثم

---

(١) " نسبت بعض البرديات القديمة ثورة المصريين على اليهود إلى ما كان يقومون به من أساليب لاغتصاب أملاك الفلاحين وابتزاز أموالهم فكانوا أول من ابتدع الربا والمراهنة كما كانوا يجمعون الذهب والفضة نظرا لتخصصهم في صناعة المصاغ ويهربونه خارج البلاد " د. سيد كريم " لغز الحضارة المصرية ص٢٥١ الهيئة المصرية العامة للكتاب .

يخرجون من الأرض " . فعهد بهم إلى مشرفين عتاة ليسخروهم بالأعمال الشاقة . فبنوا مدينتي فيثوم ورعمسيس لتكون مخازن لفرعون " (الخروج : ١)

قصة موسى مع فرعون

ثم تذكر توراة اليهود أمر فرعون بمقتل أطفال بني إسرائيل الذكور حتى لا يزيد عددهم ويتعاظم خطرهم .

"غير أن القابلتين كانتا تخافان الله فلم تنفذا أمر الملك فاستحيتا الأطفال الذكور .. ثم أصدر فرعون أمره لجميع شعبه قائلا " اطرحوا كل ابن (عبراني) يولد في النهر أما البنات فاستحيوهن " (الخروج : ١)

ثم تبدأ توراة اليهود في سرد قصة موسى منذ ولادته وتربيته في بيت فرعون حتى أرسله الله إلى فرعون ليخرج شعب بني إسرائيل من مصر . وإليك أمر التكليف من الرب لموسى بهذه المأمورية .

" فقال موسى لله من أنا حتى أمضي إلى فرعون وأخرج بني إسرائيل من مصر ؟ . فأجاب : " أنا معك ومتى أخرجت الشعب من مصر تعبدون الله على هذا الجبل فتكون هذه لك العلامة أنني أرسلتك .. وأنا عالم أن ملك مصر لن يطلقكم ما لم ترغمه يد قوية . فأمد يدي وأضرب مصر بجميع ويلاتي التي أصنع فيها وبعد ذلك يطلقكم . وأجعل هذا الشعب يحظى برضى المصريين فلا تخرجون فارغين حين تمضون بل تطلب كل امرأة من جارتها أو نزيلة بيتها جواهر فضة وذهب وثيابا تُلْبِسونَها بنيكم وبناتكم فتغنمون ذلك من المصريين " (الخروج : ٣)

ويذهب موسى وأخوه هارون إلى فرعون ليطلبا منه إطلاق بني إسرائيل .

" فقال لها ملك مصر : " يا موسى وهارون ، لماذا تعطلان الشعب عن أعماله ؟ ارجعوا إلى أعمالكم الشاقة " (الخروج : ٥)

ورغم رؤية الفرعون لمعجزة موسى – العصا – إلا أن " قلب فرعون ازداد تَصَلُّباً فلم يستمع لهما تماما كما قال الرب " (الخروج : ٧)

وبدأ الرب يوجه ضرباته لفرعون وشعبه : ضربة الدم ، صعود الضفادع ، غزو البعوض ، أسراب الذباب ، إهلاك المواشي ، الدمامل المتقيحة ، سقوط البَرَد ، غزو الجراد ، الظلام الكثيف ، موت كل بكر في مصر .

" فاستيقظ فرعون وحاشيته وجميع المصريين وإذا عويل في أرض مصر ، لأنه لم يوجد بيت ليس فيه ميت . فاستدعى موسى وهارون ليلا قائلا : " قوموا واخرجوا من بين الشعب أنتما و بنو إسرائيل ، وانطلقوا واعبدوا الرب كما طلبتم وخذوا معكم غَنَمكم وبقركم كما سألتم وامضوا وباركوني أيضا " وألحَّ المصريون على الشعب ليسرعوا في الارتحال عن البلاد قائلين : " لئلا نموت جميعا "(الخروج:١٢)

لم ينس بنو إسرائيل أن يستولوا على أواني الفضة الذهب عملا بقول موسى بل عملا بقول إلههم "يهوه " نفسه .

" وطلبوا من المصريين آنية فضة وذهبا وثيابا بحسب قول موسى . وجعل الرب الشعب يحظى برضى المصريين ، فأعطوهم كل ما طلبوه ، فغنموا من المصريين .

وارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس إلى سُكُّوت فكانوا نحو ست مئة ألف من الرجال المشاة ما عدا النساء والأولاد " (الخروج : ١٢)

والعجيب أن تذكر توراة اليهود أن الرب هو الذي قَسَّى قلب فرعون على بني إسرائيل عندما علم بهروبهم .

" تحوَّل قلب فرعون وقلوب حاشيته ضدهم وقالوا : " ماذا دهانا حتى أطلقنا إسرائيل من خدمتنا ؟ " فأعد مركبته واصطحب جيشه معه .. وقسَّى الرب قلب

فرعون ملك مصر فطارد بني إسرائيل الذين غادروا مصر بقدرة ظاهرة . وسعى المصريون وراءهم بجميع خيل فرعون ومركباته وفرسانه وجيوشه "(الخروج:١٤)

كيف يتحول قلب فرعون فجأة بين عشية وضحاها على بني إسرائيل الذين سمح لهم بالأمس القريب بالخروج ، بل طلب منهم أن يباركوه أيضا ؟!

والتفسير المنطقي المستساغ لتحوُّل قلب فرعون هو معرفته بما فعله اليهود من استعارتهم الحلي والزينة من المصريين وعدم ردها إليهم .

ندم بني إسرائيل على خروجهم من مصر

والعجيب أن بني إسرائيل لم يشكروا لموسى أنه أنقذهم من فرعون الذي كان يسومهم سوء العذاب فكان إذا ما حدث لهم مشكلة أو تعرضوا لابتلاء أو حتى بلا سبب حقيقي فإنهم كانوا يلومون على موسى إخراجهم من أرض مصر ، فحياتهم في مصر رغم ما لاقوا فيها أفضل من حياتهم في الصحراء أو ملاقاتهم للأعداء .

" ولما اقترب فرعون ، نظر بنو إسرائيل ، وإذا بالمصريين يندفعون نحوهم فارتعبوا واستغاثوا بالرب ، ثم قالوا لموسى : " هل لافتقار مصر للقبور أخرجتنا إلى الصحراء لنموت فيها ؟ ماذا فعلت بنا حتى أخرجتنا من مصر ؟ ألم نقل لك في مصر : دعنا وشأننا فنخدم المصريين إذ كان خيرا لنا أن نخدم المصريين من أن نموت في الصحراء " (الخروج : ١٤)

" وفي اليوم الخامس عشر من الشهر الثاني بعد خروجهم من أرض مصر وهناك في الصحراء تذمر بنو إسرائيل على موسى وهارون ، وقالوا لهما : " ليت الرب أماتنا في أرض مصر ، فهناك كنَّا نجلس حول قدور اللحم نأكل خبزا حتى الشبع . وها أنتما قد أخرجتمانا إلى هذه الصحراء لِتُمِيتا كل هذه الجماعات جوعا " (الخروج:١٦)

" فتذمروا على موسى وقالوا : " لماذا أخرجتنا من مصر لِتُمِيتَنا وأولادنا ومواشينا عطشا ؟ " فصرخ موسى إلى الرب : " ماذا أصنع بهذا الشعب ؟ إنهم يكادون أن يرجموني " (الخروج : ١٧)

" لماذا أخرجتمانا من مصر لتأتيا بنا إلى هذا المكان القاحل ، حيث لا زرع فيه ولا تين ولا كرم ولا رمان ولا ماء للشرب ؟ " (العدد : ٢٠)

نجاة بني إسرائيل من فرعون

وينجي الله بني إسرائيل من فرعون وجنوده بمعجزة شق البحر .

" وهكذا أنقذ الرب في ذلك اليوم الإسرائيليين من يد المصريين ، وشاهدوا جثث المصريين مطروحة على شاطئ البحر . وعندما شهد الإسرائيليون القوة العظيمة التي عامل الرب بها المصريين ، خاف الشعب من الرب وآمنوا به وبموسى عبده " (الخروج : ١٤)

وبعد أن نجَّى الله بني إسرائيل من فرعون استسقوه ففجر لهم العيون ، واستطعموه فأنزل عليهم الخبز و المنَّ و السلوى ، ومع ذلك كانوا دائما متذمرين على موسى وكانوا يلومونه على إخراجهم من أرض مصر .

الوصايا العشر

ويصعد وموسى إلى قمة جبل سيناء لملاقاة الرب .

" ونزل الرب على قمة جبل سيناء ونادى موسى ليصعد إلى قمة الجبل فصعد إليه .. ثم نطق الله بجميع هذه الأقوال : " أنا هو الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر ديار عبوديتك . لا يكن لك آلهة أخرى سواي . لا تنحت تمثالا ، لا تصنع صورة ما مما في السماء من فوق ، وما في الأرض من تحت ، وما في الماء من

أسفل الأرض . لا تسجد لهن ولا تعبدهن ، لأني أنا الرب إلهك إله غيور .. لا تنطق باسم الرب إلهك باطلا اذكر يوم السبت لتقدسه .. أكرم أباك وأمك لكي يطول عمرك في الأرض التي يهبك إياها الرب إلهك ، لا تقتل . لا تزن . لا تسرق . لا تشهد زورا على جارك . لا تَشْتَهِ بيت جارك ، ولا زوجته ، ولا عبده ، ولا أَمَتَه ، ولا ثوره ، ولا حماره ، ولا شيئا مما له " (الخروج : ١٩، ٢٠)

وبالإضافة للوصايا العشر السابقة أمرهم بأحكام أخرى : أحكام خاصة بالعبيد ، وأحكام مختصة بالقاتل والمعتدي ، وأحكام خاصة بالمواشي ، وأحكام مختصة بالسرقة والأملاك ، وأحكام مختصة بالعلاقات الخاصة ، أحكام العدل والرحمة ، شرائع السبت والاحتفالات السنوية .

ميثاق الرب مع بني إسرائيل

وتعهد " يهوه " بحماية شعب إسرائيل ومساعدته في حربه ضد أعدائه " وأجعل هيبتي تتقدمك ، أزعج كل أمة تقف في وجهك ، وأجعل أعداءك يولون الأدبار أمامك ، وأبعث الزنابير أمامك ، فتطرد الحِوِّيِّين والكنعانيين والحِثِّيِّين من قدامك .. وأجعل تخومك تمتد من البحر الأحمر إلى ساحل فلسطين ، ومن البرية حتى نهر الفرات ، وأخضع لك سكان الأرض فتطرهم أمامك . لا تبرم معهم ولا مع آلهتهم ميثاقا . ولا تسكنهم في أرضك لئلا يجعلوك تخطئ إليَّ " (الخروج : ٢٣)

ولا يكتفي إله بني إسرائيل بأن يساعدهم على احتلال أرض غيرهم بل ينهاهم عن معاهدتهم ويأمرهم بأن يطردوهم من أرضهم !!

هذه هي تعاليم توراة اليهود فلا عجب أن نرى ما يفعله الإسرائيليون من جرائم في حق الفلسطينيين فهذه تعاليم توراتهم المقدسة !!

ويوافق الشعب على تعاليم إلههم ويتعهدون بتنفيذها .

" فجاء موسى وبلغ الشعب بكل كلام الرب وأحكامه ، فأجاب الشعب بصوت واحد: " كل ما أمرنا به الرب نفعل " (الخروج : ٢٤)

ويأمر " يهوه " موسى بأن يصعد إلى الجبل ليكتب وصايا وشرائع الإله .

" وقال الرب لموسى : " اصعد إلى الجبل وامكث هناك لأعطيك الوصايا والشرائع التي تكتبها على لوحي الحجر لتلقنها لهم " . فقام موسى وأخذ خادمه يشوع وصعد إلى جبل الله .. حيث مكث هناك أربعين نهارا وأربعين ليلة " (الخروج : ٢٤)

وفي خلال هذه المدة كان الرب يصف لموسى الهيكل المُقَدَّس الذي سيقيم فيه " يهوه " بين بيني إسرائيل ، وقد وصف له بكل دقة تابوت العهد ، وأثاث المَقْدِس ، ومائدة الخبز المُقَدَّس ، والمنارة ، وسقف المسكن ، وجدران المسكن ، والستار ، ومذبح المحرقات ، وزيت الإنارة ، وأردية الكهنة ، وصُدْرَة القضاة ، والجُبَّة ، وذبيحة الخطيئة ، وقربان المحرقة ...

عبادة بني إسرائيل للعجل

وبينما كان موسى يتلقى هذه التعليمات من الرب إذا بشعب إسرائيل يطلب من هارون أن يصنع لهم إلها ليتقدمهم في المسير بسبب تأخر موسى في لقائه مع الرب

" ولما رأى الشعب أن موسى قد طالت إقامته على الجبل ، اجتمعوا حول هارون ، وقالوا له " هيا ، اصنع لنا إلها يتقدمنا في مسيرنا ، لأننا لا ندري ماذا أصاب موسى الذي أخرجنا من ديار مصر " (الخروج : ٣٢)

والعجيب أن يستجيب هارون – التوراتي – ويوافقهم على هذا الكفر رغم أن " يهوه " الذي يريدون أن يعبدوا غيره هو الذي أنقذهم من استعباد الفرعون لهم ، وأنزل عليهم الخبز والمن والسلوى ، ووعدهم بأن ينصرهم على أعدائهم ويمكن لهم في

الأرض بشرط أن يعبدوه ولا يعبدوا أحدا سواه لكنهم – ويا للعجب – وهم بَعْدُ حديثو عهد بمعجزات الله ، ونبيهم مازال حيا فقط ذهب ليكتب الوصايا والتشريعات ، وترك معهم أخاه هارون ليقضي بينهم ، رغم كل هذا ها هم يطلبون من هارون أن يصنع لهم إلها لأن موسى قد طالت إقامته في الجبل !! ومن العجيب أن هارون يجيبهم إلى طلبهم !!!

" فأجابهم هارون : " انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبناتكم وبنيكم ، وأعطوني إياها " . فنزعوها من آذانهم وجاءوا بها إليه فأخذها منهم وصهرها وصاغ عجلا . عندئذ قالوا : " هذه آلهتُكَ يا إسرائيل التي أخرجتْك من ديار مصر " . وعندما شاهد هارون ذلك شيَّد مذبحا أمام العجل وأعلن : " غدا هو عيد للرب . فبكَّر الشعب في اليوم الثاني وأَصْعَدوا محرقات وقدَّموا فقرابين سلام . ثم احتفلوا فأكلوا وشربوا ومن ثم قاموا للهو والمجون " (الخروج : ٣٢)

كيف يدعي – بعد هذا– بنو إسرائيل أنهم شعب الله المختار ، وأنهم أبناء الله وأحباؤه ، نعم هم شعب الله المختار لمعصيته ، وهم أبناء الشيطان وأحباؤه .

ويشتد غضب " يهوه " على بني إسرائيل بسبب كفرهم به واتخاذهم العجل إلها من دونه فيقرر إفناءهم .

" فأمر الرب موسى : " قم وانزل فإن الشعب الذي أخرجته من ديار مصر ، قد فسد . إذ انحرفوا سريعا عن الطريق الذي أمرتهم به ، فصاغوا لهم عجلا وعبدوه وذبحوا له الذبائح هاتفين : هذا هو إلهُك يا إسرائيل الذي أخرجك من مصر " . وقال الرب لموسى : " تأملت في هذا الشعب ، وإذا به شعب عنيد مُتَصَلِّب القلب . والآن دعني وغضبي المُحْتَدِم فأفنيهم ، ثم أجعلك أنت شعبا عظيما "(الخروج :٣٢)

هذا هو رأي " يهوه في بني إسرائيل " شعب عنيد مُتَصَلِّب القلب " وسيظل هذا دأب كثير ممن ينتسب لهذا الدين . ويأخذ موسى في الابتهال إلى الرب ليعفوا عن

شعبه العنيد حتى لا يَشْمت به المصريون " فتراءف الرب ولم يوقع بشعبه العقاب الذي توعد به " (الخروج : ٣٢)

ولكن موسى ما إن اقترب من المخيم " وشاهد العجل والرقص حتى احتدم غضبه وألقى باللوحين (المكتوب عليهما الوصايا العشر) من يده وكسرهما عند سفح الجبل . ثم أخذ العجل الذهبي وأحرقه بالنار وطحنه حتى صار ناعما ، وذَرَّاه على وجه الماء وأرغمهم على الشرب منه " (الخروج : ٣٢)

ولم يكتف موسى بهذا فقرر تمحيصهم ومعرفة من يتبع الرب ممن تولى عنه واتبع هواه فوقف " في باب المخيم وصاح " كل من يتبع الرب فليقبل إليَّ هنا " فاجتمع حوله اللَّاوِيون . فهتف بهم " هذا ما يعلنه الرب إله بني إسرائيل : ليتقلد كل واحد سيفه ، وجولوا في المخيم ذهابا وإيابا من مدخل إلى مدخل ، واقتلوا كل داعر سواء أكان أخا أو صاحبا أم قريبا " . فأطاع اللّاويون أمر موسى فقُتِل من الشعب في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل " (الخروج : ٣٢)

والسؤال هنا من الضحية ومن الجزار في هذه الحادثة التي تعد أول حادثة يقتل فيها هذا الخلق الكثير من بني إسرائيل ؟ هل يعد الكافرون بالله العابدون للعجل هم الضحية ؟! ويهوه هو الجزار ؟!!

إن المتتبع لكل عقاب سينزل ببني إسرائيل بعد ذلك يجده يسير على هذا المنوال فساد من بني إسرائيل ، وعصيان لله يكون جزاؤه عقاب من الرب ينزله بهم ليس بأيديهم كما حدث في هذه المرة إنما بأيدي أعدائهم .

فتوراة اليهود توضح بجلاء المسئول عن كل بلاء حاق ببني إسرائيل ، إنه كفرهم وفسادهم ، وما العقاب الذي ينزله بهم الله إلا جزاء وفاقا .

عقوبات العصيان

فمن بين الميثاق المبرم بين " يهوه " وشعبه عقوبات العصيان التي يقول الرب فيها لبني إسرائيل :

" إن عصيتموني ولم تعملوا بكل هذه الوصايا ، وإن تنكرتم لفرائضي وكرهتم أحكامي ولم تعملوا بكل وصاياي ، بل نكثتم ميثاقي ، فإني أبتليكم بالرعب المفاجئ وداء السل والحُمَّى التي تُفْني العينين وتتلف النفس ، وتزرعون على غير طائل ، وينهب أعداؤكم زرعكم . وأنقلب عليكم فتنهزمون أمام أعدائكم ، ويتحكم بكم مبغضوكم وتهربون من غير طارد لكم .

وإن أمعنتم في عصيانكم أزيد من عقابكم سبع مرات وفقاً لخطاياكم . أُذِلُ غطرستكم ، وأجعل سماءكم كالحديد لا تمطر وأرضكم كالنحاس لا تُغِلُّ فيذهب جهدكم باطلا ... وإن لم تتعظوا ، وتماديتم في عصيانكم أنقلب عليكم وأزيد في بلائكم سبع مرات وفقا لخطاياكم . أسلط عليكم سيف العدو . فينتقم منكم لنقضكم ميثاقي .. وأجعل الأرض قفرا فيرتاع من وحشتها أعداؤكم الساكنون فيها ، وأشتتكم بين الشعوب ، وأجرد عليكم سيف ، وألاحقكم ، وأحول أرضكم إلى قفر ومدنكم إلى خرائب . عندئذ تستوفي الأرض راحة سبتها طوال سنين وحشتها وأنتم مشتتون في ديار أعدائكم . حينئذ ترتاح الأرض وتستوفي سنين سُبُوتِها فتُعَوِّض في أيام وحشتها عن راحتها التي لم تنعم بها في سنوات سُبُوتكم عندما كنتم تقيمون عليها . أما الباقون منكم في أرض أعدائكم ، فإني ألقي الرعب في قلوبهم فيهربون من حفيف ورقة تسوقها الريح ، وكأنهم يهربون من السيف . ويسقطون وليس ثمة مطارد لهم . ويعثر بعضهم ببعض كمن يفر من أمام سيف من غير مطارد لهم ، ولا تثبتون أمام أعدائكم فتهلكون بين الشعوب وتبتلعكم أرض أعدائكم . أما بقيتكم فتفنى بذنوبها وذنوب آبائها في أرض أعدائكم كما فني آباؤهم من قبلهم " (اللاويين : ٢٦)

كل هذه البلايا من خراب لبيت بني إسرائيل ، وأوبئة ، وقتل ، وشتات ، وقهر وذل من أعدائهم جزاء المعصية والفساد ونقض الميثاق مع الله فإن تابوا وأصلحوا فإن " يهوه " يجدد لهم العهد .

" إن اعترفوا بخطاياهم وخطايا آبائهم وبخيانتهم لي وعداوتهم ، التي جعلتني انقلب عليهم وأنفيهم إلى أرض أعدائهم وإن خضعت قلوبهم النجسة بعد أن استوفوا عقاب خطاياهم فإني أذكر ميثاقي مع إسحق وميثاقي مع إبراهيم "(اللاويين : ٢٦)

وبناء على هذا الميثاق ، وأحداث التاريخ التوراتي ، بل والتاريخ الإنساني العام ، فإن كل اضطهاد نزل ببني إسرائيل ، أو بالجماعات اليهودية في كل زمان ومكان كان بسبب فسادهم ونقضهم للعهد .

أسباب انتصار إسرائيل على العرب في التاريخ المعاصر

أما تغلب الإسرائيليين على العرب وقهرهم لهم في التاريخ المعاصر فلم يكن بسبب صلاحهم وإقامتهم للتوراة إنما كان بسبب فساد العرب وتخليهم عن دينهم وعن السعي المخلص لدنياهم فأصبحوا هم واليهود في الإثم سواء بل أصبح اليهود أفضل منا على الأقل في الأخذ في أسباب العلم والتقدم فكانت الغلبة لهم .

هذه هي الحقيقة التي يجب أن يعيها اليهود والعرب جميعا ، وهي أن انتصار اليهود لم يكن مرجعه طاعة الله وإنما أخذهم في أسباب التقدم ، وتخلي العرب – أكثرهم – عن الدين الصحيح ، وإهمالهم لأسباب التقدم والعدل وحرية الرأي .

وتوراة اليهود نفسها تصرح بهذا .

" لا تقولوا لأنفسكم بعد أن ينفيهم الرب من أمامكم : " لقد أَدخَلَنَا الرب لامتلاك هذه الأرض بفضل صلاحنا " . إنما من أجل كثرة إثمهم يطردهم الرب إلهكم من

أمامكم . إذ ليس بفضل صلاحكم واستقامتكم تدخلون لامتلاك أرضهم ، إنما من أجل إثمهم يطردهم الرب من أمامكم " (التثنية : ٩)

والقرآن الكريم يصرح بهذا في مواضع كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾(النور: ٥٥) .

فيبين الله تعالى في هذه الآية المباركة أن الله وعد – ومن أصدق من الله قيلا – الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وقاموا بما فرضه الله عليهم من عبادة له جل وعلا وتعمير لأرضه وعدهم بأن يجعلهم خلفاء الأرض ويمكن لهم دين الإسلام ويفضلهم على العالمين ، كما حدث لبني إسرائيل من قبل ، بشرط أن يعبدوا الله كما أمر في كتابه وسنة نبيه .

" ﴿ ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ أي فمن خرج عن طاعة الله بعد ذلك، وارتكب ما نهى الله عنه فأولئك لا نصر لهم من الله " فالصحابة رضي اللّه عنهم لما كانوا أقوم الناس بأوامر اللّه عزَّ وجلَّ، وأطوعهم للّه كان نصرهم بحسبهم، أظهروا كلمة اللّه في المشارق والمغارب، وأيدهم تأييداً عظيماً، وحكموا سائر العباد والبلاد، ولما قصّر الناس بعدهم في بعض الأوامر نقص ظهروهم بحسبهم " (١) فبإثمنا لا بصلاحهم عاقبنا الله بهم فهم جبناء تؤثر فيهم أدنى مقاومة ، وتفزعهم أية قوة ، وتاريخهم يشهد بذلك .

خوف بني إسرائيل من قتال الكنعانيين

قال الرب لموسى " أرسل جواسيس إلى أرض كنعان التي أنا واهبها لبني إسرائيل أرسل رئيسا من كل سبط ممثلا له " فأرسل موسى ممثلي الشعب الرؤساء من صحراء فاران طبقا لأمر الرب " (العدد : ١٣)

(١) تفسير ابن كثير للآية الكريمة

وبعد أربعين يوما رجعوا من اكتشاف أرض كنعان وقالوا : " قد انطلقنا إلى الأرض التي أرسلتنا إليها ، فوجدناها تفيض حقا لبنا وعسلا ، وهذه هي ثمارها غير أن الشعب المستوطن فيها بالغ القوة ومدنه منيعة وعظيمة جدا "(العدد " ١٣)

وأشاع بعض الجواسيس الذعر بين الإسرائيليين من البلاد التي تجسسوها قائلين " ستفترسنا الأرض التي تجسسناها وجميع من شاهدناهم من سكان عمالقة فقد رأينا هناك الجبابرة بني عناق ، فبدونا في أعين أنفسنا كالجراد ، وكذلك كنا في عيونهم " (العدد : ١٣)

وكعادة أبناء إسرائيل التمرد على موسى ، والتبرم بأحكام الرب ، والجزع من ملاقاة الأعداء " رفع الشعب كله صوته وبكى في تلك الليلة ، وتذمر على موسى وهارون وقالوا : " ليتنا مِتْنا في ديار مصر أو ليتنا متنا في الصحراء . لماذا أحضرنا الرب إلى هذه الأرض لنهلك بحد السيف ، وتؤخذ نساؤنا وأطفالنا سبايا ؟ أليس من الأفضل لنا أن نرجع إلى مصر ؟ " وقال بعضهم لبعض : " لننتخب لنا قائدا ونرجع إلى مصر " .

فخرَّ موسى وهارون على وجهيهما أمام جميع شعب إسرائيل ومزَّق يوشع بن نون وكالب بن يفنة ثيابهما وقالا لكل الشعب : " .. لا تتمردوا على الرب ولا تجزعوا من شعب الأرض ، لأننا سنبتلعهم كالخبز ، فقد تلاشى ظل الحماية عنهم ، والرب معنا فلا ترهبوهم " .

ولكن الشعب طالب برجمهما بالحجارة . غير أن مجد الرب ظهر في خيمة الاجتماع على مرأى منهم جميعا . وقال الرب لموسى : " إلى متى يُمْعِن هذا الشعب في إهانتي ، وإلى متى لا يصدقوني على الرغم من معجزاتي التي أجريتها في وسطهم ؟ سأبيدهم بالوباء ، وأجعلك شعبا أكبر وأعظم منهم " لكن موسى تشفَّع لهم

للرب قائلا : " إن أهلكت هذا الشعب دفعة واحدة ، فإن الأمم التي سمعت بخبرك تقول إنك قد عجزت عن أن تدخل هذا الشعب إلى هذه الأرض التي وعدهم بها فأهلكتهم في الصحراء " (العدد : ١٤)

ويعفو الرب عن بني إسرائيل لكنه يحرم على العصاة منهم دخول الأرض التي وعد الرب بها آباءهم .

" فأجاب الرب : " قد صفحت بحسب قولك ولكن كما أنا حقا حيَّ وكما أن مجد الرب حقا يملأ الأرض فإن جميع الرجال الذين عاينوا مجدي ومعجزاتي التي أجريتها في مصر وفي الصحراء وجربوني عشرات المرات من غير أن يطيعوا قولي ، لن يروا الأرض التي وعدت بها آباءهم . جميع من استخفوا بها لن يشاهدوها " (العدد : ١٤)

عقاب الرب لبني إسرائيل بالتيه

لذا عاقبهم الرب أن يتيهوا في سيناء أربعين سنة حتى يفنى هذا الجيل من العصاة

" لن تدخلوا الأرض التي وعدت رافعا يدي بقسم أن أسكنكم فيها ، ما عدا كالب بن يفنة ويشوع بن نون . غير أني سأدخل أولادكم الذين ادعيتم أنهم يصبحون أسرى فيتمتعون بالأرض التي احتقرتموها . أما أنتم فجثثكم تتساقط في هذا القفر ، ويبقى بنوكم في الصحراء أربعين سنة تعانون من فجوركم حتى تبلى جثثكم فيها "

(العدد : ١٤)

وتآمر مئتان وخمسون من رؤساء بني إسرائيل على موسى " هؤلاء تألبوا على موسى وهارون وقالوا : " حسبكما ! إن كل الجماعة بأسرها مقدسة ، وفي وسطها الرب . فما بالكما تترفعان على جماعة الرب " (العدد : ١٦)

وعاقبهم الرب بأن " انشقت الأرض تحتهم وفتحت فاها وابتلعتهم مع بيوتهم "

ولم يرض بنو إسرائيل عن هذا العقاب الإلهي وتذمروا من موسى وهارون رغم أنهما لا دخل لهما بما جرى .

" وفي اليوم الثاني تذمر جميع بني إسرائيل على موسى وهارون قائلين : " لقد قتلتم شعب الله " وقد عاقبهم الرب على ذلك بتفشي الوباء فيهم " فكان الذين هلكوا بالوباء أربعة عشر ألفا وسبع مئة ، عدا الذين ماتوا بسبب القروح " .

والسؤال هنا من المسئول عن موت هذه الأربعة عشر ألفا وسبعمائة (١٤٧٠٠) هل المسئول عنهم أعداء السامية كما يدعي اليهود دائما ؟!! ليتهم يقرءون توراتهم قبل أن يتهموا غيرهم .

فساد شعب إسرائيل وعقاب الرب لهم

ولم يتضرع بنو إسرائيل إلى الله ليرفع عنهم البلاء بل راحوا يرتكبون مزيدا من الموبقات التي وصلت إلى عبادة آلهة أخرى من دون الله !!

" وأقام الإسرائيليون في شطيم فشرع الرجال يرتكبون الزنى مع الموآبيات اللواتي أغوين الشعب لحضور ذبائح آلهتهن والأكل منها والسجود لها . فاشترك الإسرائيليون في عبادة بَعْل فغور . فاحتدم غضب الرب عليهم . فقال الرب لموسى : " خذ جميع قادة عبدة البعل واصلبهم ، وعلقهم تحت وطأة حرارة الشمس أمام الرب ، فترتد شدة غضبه عن بني إسرائيل " . فقال موسى لقضاة إسرائيل : " اقتلوا كل واحد من قومكم من المتعلقين بعبادة بعل فغور " (العدد : ٢٥)

ومع ذلك فإن " يهوه " ربهم قرر أن يحقق اللهم والوعد الذي وعد به آباءهم من امتلاك أرض كنعان على الرغم من عبادتهم لغيره ، وارتكابهم الفواحش والمنكرات في عينيه !! فقط يحذرهم من إهمال وصاياه وفرائضه ، كأنه لا يعلم طبيعة شعبه ، ولم يجربهم من قبل !!

" إياكم من نسيان الرب إلهكم وإهمال وصاياه وأحكامه وفرائضه .. اذكروا أن الرب إلهكم هو الذي يمنحكم القوة لإحراز الثروة وفاء بوعده الذي أقسم عليه لآبائكم كما في هذا اليوم أما إن نسيتم الرب إلهكم ، وغويتم وراء آلهة أخرى وعبدتموها وسجدتم لها ، فإنني أشهد عليكم أنكم لا محالة هالكون كالأمم التي يبيدها الرب من أمامكم هكذا أنتم أيضا تَبيدون ، لأنكم لم تطيعوا أمر الرب إلهكم " (التثنية : ٨)

تحقق الوعد الإلهي بدخول بني إسرائي أرض كنعان

وعلى الرغم مما فعله بنو إسرائيل مع الرب ونقضهم لعهده وعبادتهم سواه إلا أنه أوفى لهم بوعده لآبائهم بدخول أرض كنعان تفضلا منه لا جزاء لهم ، فما فعلوه يستحق العقاب لا المكافأة .

" استمعوا يا بني إسرائيل : أنتم على وشك عبور نهر الأردن لتدخلوا لطرد شعوب أكبر وأعظم منكم وللاستيلاء على مدن عظيمة محصنة بأسوار تبلغ عنان السماء يقيم فيها الجبابرة والعمالقة الذين عرفتم عنهم وسمعتم من يقول : " من يستطيع أن يتحدى العناقيين ؟ " اعلموا اليوم أن الرب إلهكم يتقدمكم كنار آكلة وهو الذي يستأصلهم ويذلهم أمامكم ، فتطردونهم وتبيدونهم سريعا كما كلمكم الرب . لا تقولوا لأنفسكم بعد أن ينفيهم الرب من أمامكم : " لقد أَدخَلَنَا الرب لامتلاك هذه الأرض بفضل صلاحنا " . إنما من أجل كثرة إثمهم يطردهم الرب إلهكم من أمامكم . إذ ليس بفضل صلاحكم واستقامتكم تدخلون لامتلاك أرضهم ، إنما من أجل إثمهم يطردهم الرب من أمامكم وفاء بوعده الذي أقسم عليه لآبائكم إبراهيم وإسحق ويعقوب . فاعلموا انه ليس بفضل صلاحكم يهبكم الرب إلهكم هذه الأرض الخصيبة لامتلاكها ، لأنكم شعب عنيد " (التثنية : ٩)

سقوط أريحا

وبعد أن أعانهم الرب على دخول أرض كنعان ليس بفضل صلاحهم إنما بسبب إثم أعدائهم اندفع شعب إسرائيل نحو مدينة أريحا " واستولوا عليها . ودمروا المدينة وقضوا بحد السيف على كل من فيها من رجال ونساء وأطفال وشيوخ حتى البقر والغنم والحمير .. ثم أحرق الإسرائيليون المدينة بالنار بكل ما فيها . أما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد فقد حفظوها في خزانة بيت الرب .. في ذلك الوقت أنذر يشوع الشعب قائلا : " ملعون أمام الرب كل من يحاول أن يعيد بناء أريحا ، فإن بِكْرَهُ يموت وهو يضع أساساتها ، وصغيره يَهْلك وهو يقيم بواباتها "(يشوع:٦)

أعرفتم الآن لماذا تخلت إسرائيل في اتفاقية أسلو على أريحا ؛ الرب لعن كل من يحاول بناء أريحا ، وتوعده بموت أبنائه : البكر والصغير . أما غزة فلأنها مركز المقاومة ، ومقر المناضلة الباسلة .

ومع أن الرب بدأ يحقق لبني إسرائيل وعوده إلا أن بعض الإسرائيلين ارتكبوا خيانة فأخذوا " مما هو مخصص للرب فاحتدم غضب الرب على بني إسرائيل "

(يشوع : ٧)

فعاقبهم الرب بهزيمتهم " أمام أهل عايَ وقتل منهم أهل عايَ نحو ستة وثلاثين رجلا .. فقال الرب ليشوع : " قم لماذا أنت ساقط على وجهك ؟ لقد ارتكب إسرائيل خطئية ، بل تعدّوا على عهدي الذي أمرتهم به ، بل أخذوا مما حرَّمته عليهم وسرقوا وأنكروا ، بل خبَّأُوا في أمتعتهم لهذا عجز بنو إسرائيل عن الثبات أمام أعدائهم ، فولّوا الأدبار ، لأنهم هالكون إذ لن أعود أكون معكم ما لم تستأصلوا الحرام من وسطكم "

(يشوع : ٧)

ولما رجم بنو إسرائيل من ارتكبوا الخطيئة وأحرقوهم بالنار عفا الرب عنهم وأقدرهم على هزيمة أهل مدينة عايَ " وعندما تم القضاء على جيش عايَ في الصحراء حيث

تعقبوا الإسرائيليين وفنوا جميعهم بحد السيف ، رجع المحاربون الإسرائيليون إلى عايَ وقتلوا كل من فيها فكان جميع من قتل في ذلك اليوم من رجال ونساء اثني عشر ألفا وهم جميع أهل عايَ .. وهكذا أحرق يشوع عايَ وحوَّلها إلى تل خراب أبدي إلى هذا اليوم " (يشوع : ٨)

يشوع يستولي على كل أرض كنعان

واستطاع يشوع بمساعدة الرب أن يستولي على كل أرض كنعان وأن يبيد أهلها ويحرق مدنها وبهذا تحقق الوعد الإلهي لبني إسرائيل .

" وهكذا وهب الرب إسرائيل جميع الأراضي التي حلف أن يعطيها لآبائهم فورثوها وأقاموا فيها ، فأراحهم الرب من كل ناحية كما أقسم للآبائهم ، ولم يستطع أحد من جميع أعدائهم أن يقاوموا ، بل أسلمهم الرب لهم جميعا **فتحقق كل ما وعد الرب به بني إسرائيل من وعود صالحة** " (يشوع : ٢١)

وبهذا تم الوعد ولم يعد هناك وعود إلهية أخرى لبني إسرائيل ، لم يبق إلا أن يشكر بنو إسرائيل الرب على وقوفه معهم ضد أعدائهم ومباركته لهم وألا يعصوه حتى لا تحل بهم لعناته التي هددهم بها .

" وعبد الإسرائيليون الرب طوال حياة يشوع ، وفي أثناء أيام الشيوخ الذين عمروا طويلا بعد يشوع ممن شهدوا كل معاملة الرب التي أجراها مع إسرائيل "

(يشوع : ٢٤)

لكن هيهات أن يداوم بنو إسرائيل على الطاعة إنهم جبلوا على المعصية ولقد ضاق كل أنبيائهم بهم ذرعا بسبب فسادهم و اعتراضهم على الرب وعصيانهم لأوامره.

بنو إسرائيل ينكثون العهد مع الله

وبعد أن أوفى الله لهم بوعده مع آبائهم لم يفوا هم بوعدهم مع الرب وراحوا كالعادة يعبدون غيره ! فاشتد غضب الرب عليهم وأسلمهم لأعدائهم فانهزموا واعتراهم ضيق شديد .

" واقترف بنو إسرائيل الشر في عيني الرب وعبدوا البَعْلِيم ، ونبذوا الرب إله آبائهم الذي أخرجهم من ديار مصر وغووا وراء آلهة أخرى من أوثان الشعوب المحيطة بهم ، وسجدوا لها ، فأغاظوا الرب . وتركوا الرب وعبدوا البَعْل وعَشْتَارُوث . فاحتدم غضب الرب على إسرائيل وتركهم تحت رحمة الناهبين الغزاة . وأسلمهم إلى أعدائهم المحيطين بهم فعجزوا عن مقاومتهم . وحيثما خرجوا لخوض الحرب كان الرب ضَدَّهم فينكسرون ، تماما كما سبق وحذرهم فاعتراهم ضيق عظيم جدا "

(القضاة : ٢)

وتستمر الدراما التوراتية على هذا المنوال ولا تكاد تخرج عنه ، يقترف بنو إسرائيل الشر بعدما ينعم الرب عليهم بالنصر ، فيسلط الرب عليهم من يسومهم سوء العذاب ثم يعفو الرب عنهم ثم لا يلبثون أن يعودوا للفساد فيعود الرب للعقاب وهكذا دواليك .

" ارتكب بنو إسرائيل الشر في عيني الرب ونسوا إلههم وعبدوا البَعْلِيم وعَشْتَارُوث فاحتدم غضب الرب عليهم ، فسلط عليهم كوشان رشعتايم ملك أرام النهرين ، فاستعبد كوشان رشعتايم بني إسرائيل ثماني سنوات .

واستغاث بنو إسرائيل بالرب فأقام لهم مخلصا أنقذهم هو عُثْنِيئِيْل بن قَناز أخو كالب الأصغر فحلّ عليه روح الرب وصار قاضيا لإسرائيل . وحين خَرَج لمحاربة كوشان رشعتايم ملك أرام تغلب عليه ، وأظفره الرب به .

وعم السلام البلاد حِقبة أربعين سنة ، إلى أن مات عُثْنِيئِيْل بن قَناز . فعاد بنو إسرائيل يقترفون الشر في عيني الرب فسلط عليهم الرب عِجْلون ملك موآب عقابا لهم على شرهم فألَّب عليهم بني عَمُّون وعماليق ، وهاجَمَهم واحتلَّ أريحا مدينة النخل واستعبد عجلون ملك موآب بني إسرائيل ثماني عشرة سنة فاستغاث بنو إسرائيل بالرب فأرسل لهم منقذا إهود بن جيرا البنياميني .. وهاجموا الموآبين وقتلوا منهم نحو عشرة آلاف من المحاربين الأشداء في ذلك اليوم خضع الموآبيون لبني إسرائيل وعمَّ السلام البلاد ثمانين سنة ..

وبعد موت إهود عاد بنو إسرائيل يرتكبون الشر في عيني الرب فأخضعهم الرب ليابين ملك كنعان .. " (القضاة : ٣،٤)

داود يقتل جليات جبار الفلسطينيين

ولم تتوقف الحرب بين بني إسرائيل وبين الفلسطينيين أصحاب أرض كنعان الذين عاقبهم الرب لأثمهم بأن مكَّن بني إسرائيل من احتلال أرضهم ، ومع ظهور داود تأخذ الحرب منحى آخر فبدأت كفة بني إسرائيل في الرجحان ؛ فقد استطاع داود أن يقتل جليات جبار الفلسطينيين وهاك مشهد قتله .

قال داود لجُلْيات جبار الفلسطينيين وكان عملاقا يصل طوله إلى ثلاثة أمتار وكان داود بعدُ صغيرا " اليوم يوقعك الرب في يدي فأقتلك وأقطع رأسك وأقدم جثث جيش الفلسطينيين هذا اليوم لتكون طعاما لطيور السماء وحيوانات الأرض ، فتعلم المَسكونة كلها أن هناك إلها في إسرائيل . وتدرك الجموع المحتشدة هنا أنه ليس بسيف ولا برُمح يُخَلِّص الرب ، لأن الحرب للرب وهو ينصرنا عليكم " وعندما شاهد داود الفلسطينيَّ يَهُبُّ متقدما نحوه ، أسرع للقائه . ومدَّ يده بمقلاعه ورماه ، فأصاب جبهة الفلسطيني فغاص الحجر في جبهته وسقط جُلْيات على وجهه إلى الأرض .

وهكذا قضى داود على الفلسطيني بالمقلاع والحجر وقتله . وإذ لم يكن بيده سيف ركض نحو جليات واخترط سيفه من غمده وقتله وقطع به رأسه . فلما رأى جبَّارهم قد قُتِل هربوا " (صموئيل الأول : ١٧)

ويبدأ نجم داود في البزوغ ، ويبدأ قلب الملك شاول يمتلأ حقدا عليه لذا حاول أكثر من مرة قتله ولكنه في كل مرة كان يفشل ويعفو داود عنه (١)

---

(١) وإليك بعض صور الصراع الذي دار بين شاول وداود كما جاءت في التوراة " وشرع شاول منذ ذلك اليوم فصاعدا يراقب داود بعين ممتلئة بالغيرة وحدث في اليوم التالي أن هاجم الروح الرديء شاول من قِبَل الرب ، فبدأ يهذي جنون في وسط البيت ، وبينما كان داود يعزف كعادته في كل يوم ، وكان في يد شاول رمح ، فأشرع شاول الرمح وقال في نفسه : " سأسمِّر داود إلى الحائط فراغ داود من أمامه مرتين وصار شاول يخشى داود لأن رب كان معه وقد فارق شاول " (صموئيل : ١٨)

وحاول شاول أن يستعدي الفلسطينيين على داود فيسعون لقتله فرغب شاول داود في مصاهرته وجعل مهر ابنته أن يقتل داود مئة من الفلسطينيين . " أبلغ عبيد شاول داود بمطلب الملك . فَرَاقَه الأمر ، ولاسيما فكرة مصاهرة الملك . وقبل أن تنتهي المهلة المعطاة له انطلق مع رجاله وقتل مئتي رجل من الفلسطينيين ، وأتى بِغُلَفِهم وقدمها كاملة لتكون مهرا لمصاهرة الملك فزَّوجه شاول عندئذ من ابنته مِيكال . وأدرك شاول يقينا أن الرب مع داود ، وأن بنته ميكال تحبه . فتزيد خوف شاول من داود ، وأصبح عدوه اللدود طوال حياته " (صموئيل : ١٨)

ويحاول شاول قتل داود مرة ثانية ويفشل وتساعد ميكال زوجها داود على الهرب ، لكن شاول تعقبه من بلد لبلد فلجأ داود إلى السكن في أرض الفلسطينيين .

" وحدَّث داود نفسه : " إن بقيت في أرض إسرائيل فإن شاول لابد أن يقتلني في يوم ما . فَلأَلْجَأن إلى أرض الفلسطينيين فييأس شاول مني ويكف عن البحث عني في تخوم إسرائيل فأنجو من يده " فارتحل داود والست مئة رجل الذين معه إلى أخيش بن معوك ملك جّت " (صموئيل : ٢٧) =

= وبدأ داود ورجاله يشنون الغارات على سكان الأرض الممتدة من حدود أشور إلى تخوم مصر " وهاجم داود سكان الأرض ، فلم يستبق نفسا واحدة . واستولى على الغنم والبقر والحمير والجمال والثياب ، ثم رجع إلى أخيش . وعندما كان أخيش يسأل داود : " أين أغرت هذه المرة ؟ " كان يجيب : " على جنوبي يهوذا وعلى جنوبي أرض اليرحمئيليين وجنوبي القينيين " ولم يكن داود يستبقي رجلا أو امرأة على قيد الحياة

داود يصبح ملكا على بني إسرائيل

ويُقْتَل الملك شاول في حربه مع الفلسطينيين ، ويختار رؤساء أسباط إسرائيل دواد ملكا عليهم .

" وتوافد جميع رؤساء أسباط إسرائيل إلى داود في حبرون قائلين : " إننا لحمك وعظمك . وفي الأيام الغابرة عندما كان شاول ملكا علينا كنت أنت قائدنا في المعارك ، وقد قال الرب لك : " أنت ترعى شعبي إسرائيل وتتولى حكمه " . وفي حضور شيوخ إسرائيل في حبرون قطع الملك داود معهم عهدا أمام الرب ، فنصبوه ملكا على إسرائيل " (صموئيل الثاني : ٥)

خطيئة داود وغضب الرب عليه

ولكن داود التوراتي لم يقنع بما مَنَّ الله عليه من نعم – وهي كثيرة – فتطلع إلى ما ليس له مما في أيدي غيره ففي إحدى الأمسيات نهض داود من سريره وأخذ يتمشى

لئلا يأتي جَت من يبلغ أخيش عما فعله داود هكذا كان داود يفعل وال مدة إقامته في بلاد الفلسطينيين " (صموئيل : ٢٧)

وخرج داود لقتال بني إسرائيل مع الفلسطينيين " في تلك الأيام حشد الفلسطينيون جيوشهم لمحاربة الإسرائيليين ، فقال أخيش لداود : " لابد أن تنضم إلى الجيش أنت ورجالك لخوض الحرب " . فأجابه داود : " سترى بعينك ما يصنع عبدك داود في الحرب " . فقال أخيش لداود : " إذن أجعلك حارسي الشخصي كل الأيام " (صموئيل : ٢٨)

ولكن أقطاب الفلسطينيين قالوا لأخيش : " لا تدعه يشترك معنا في الحرب لئلا ينقلب علينا .. أليس هذا هو داود الذي غنَّت له النساء راقصات قائلات : قتل شاول ألوفا ، وقتل داود عشرات الألوف ؟ "

فاستدعى أخيش داود وقال له : " أقسم لك بالرب أنك ستقيم ، ويسرني انضمامك إلى الجيش لأنني لم أجد فيك علة منذ أن جئت إليّ حتى اليوم غير أن قادة جيشي ساخطون عليك . فامضي الآن بسلام وعد إلى موضعك ولا تقترف ما يسيء إلى أقطاب الفلسطينيين " . فقال داود : " ماذا جنيت ، وأي علة وجدتَ في عبدك منذ أن مثلتُ أمامك إلى اليوم حتى لا أشترك في محاربة أعداء سيدي الملك ؟ " فقال أخيش : " إني واثق أنك صالح في عيني كملاك الله " (صموئيل : ٢٩)

على سطح قصره ، فشاهد امرأة ذات جمال أخَّاذ تستحم . فأرسل داود من يتحرى عنها فأبلغه أحدهم : " هذه بَثْشَبَع بنت أليعام زوجة أُوريا الحِثِّيِّ ، فبعث داود يستدعيها . فأقبلت إليه وضاجعها إذ كانت قد تطهرت من طمثها ، ثم رجعت إلى بيتها . وحملت المرأة فأرسلت تبلغ داود بذلك فوجه داود إلى يوآب قائلا : " أرسل إليَّ أُوريا الحِثِّيِّ .. قال داود لأوريا امكث هنا اليوم وغدا أطلقك " .. وفي الصباح كتب داود رسالة إلى يوآب ، بعث بها مع أوريا ، جاء فيها : اجعلوا أوريا في الخطوط الأولى حيث ينشب القتال الشرس ، ثم تراجعوا من ورائه ليلقى حتفه " . فعيَّن يوآب أوريا في أثناء محاصرة المدينة ، في أشد جبهات القتال ضراوة ، حيث احتشد أبطال الأعداء . فاندفع رجال المدينة لمحاربة يوآب فمات بعض رجال داود ومنهم أُوريا الحِثِّيِّ .. وعندما علمت زوجة أوريا أن زوجها قد قتل ناحت عليه وحين انقضت فترة الحداد ، أرسل داود وأحضرها إلى القصر وتزوجها وولدت له ابنا ولكن الرب استاء من هذا الأمر الذي ارتكبه داود " (صموئيل الثاني : ١١)

عقاب الرب لداود

ويغضب الرب على داود بسبب فعلته هذه ، وينذره بالعقاب " لن يفارق السيف بيتك إلى الأبد ، لأنك احتقرتني واغتصبت امرأة أُوريا الحِثِّيِّ . واستطرد : هذا ما يقوله الرب : سأثير عليك من أهل بيتك من ينزل بك البلايا ، وآخذ نساءك أمام عينيك وأعطيهن لقريبك ، فيضاجعهن في وضح النهار . أنت ارتكبت خطيئتك في السِّر ن وأنا أفعل هذا الأمر على مرأى جميع بني إسرائيل "

(صموئيل الثاني : ١٢)

ويموت الولد الذي حملت به بثشبع سفاحا من داود " ثم توجه داود إلى بثشبع وواساها وضاجعها ، فولدت له ابنا دعاه سليمان وأحب الرب الولد "

(صموئيل الثاني : ١٢)

ويتآمر أبشالوم على أبيه داود ويستولي على ملكه ويضاجع نساء أبيه " ودخل لمضاجعة محظيات أبيه على مرأى جميع الإسرائيليين " (صموئيل الثاني : ١٦)

واستطاع داود أن يعيد تنظم قواته ويحارب ابنه أبشالوم وانتهت المعركة " بهزيمة جيش إسرائيل أمام قوات داود ، وقُتِلَ منهم عشرون ألفا في مجزرة ذلك اليوم ، واتسعت رقعة القتال وافترست الغابة من الجيش أكثر من الذين افترسهم السيف في ذلك اليوم " (صموئيل الثاني : ١٨)

وفي هذه المعركة قُتِلَ أبشالوم ابن داود وناح داود على ابنه " يا ابني أبشالوم ، يا ليتني مت عوضا عنك يا أبشالوم يا ابني . آه يا ابني "(صموئيل الثاني : ١٨)

غضب الرب على بني إسرائيل

وعاد الرب فاحتدم غضبه على إسرائيل بسبب قيام داود – بإغواء من الشيطان – بإحصاء الشعب من بئر سبع إلى دان " وتآمر الشيطان ضد إسرائيل فأغرى داود بإحصاء الشعب فأمر داود يوآب ورؤساء إسرائيل قائلا : " اذهبوا وعِدُّوا الشعب ، من بئر سبع إلى دان ، وارفعوا إليَّ تقريريكم فأعلم كم عدده .. وإذ كان هذا الإحصاء ممقوتا في عيني الله ، عاقب الله الإسرائيليين " (أخبار الأيام الأول : ٢١) .

وكان العقاب الذي اختاره داود من بين ثلاثة عقوبات هو تفشي الوباء ثلاثة أيام " فأفشى الرب وبَأً في إسرائيل من الصباح حتى نهاية ثلاثة أيام ، فمات الشعب من دان إلى بئر سبع سبعون ألف رجل .. فقال داود للرب عندما شاهد الملاك المُهْلِك " أنا هو المخطئ والمذنب ، وأما هؤلاء الخِرَاف فماذا جنوا ؟ ليحلَّ عقابك عليّ وعلى بيت أبي " (صموئيل الثاني : ٢٤)

سليمان يصبح ملكا على إسرائيل بعد موت داود

" وعندما أحس داود بدنو أجله أوصى سليمان ابنه قائلا : " أنا ماض إلى مصير كل أهل الأرض فتشجع وكن رجلا . احفظ شرائع إلهك . سر في سبيله وأطع فرائضه

ووصاياه وأحكامه وشهاداته كما هي مدونة في شريعة موسى ليحالفك النجاح في كل ما تفعل وحيثما تتوجه .. ثم مات داود ودفن في أورشليم " (ملوك الأول : ٢) .

مصاهرة سليمان لفرعون

" وتزوج سليمان ابنة فرعون ملك مصر وأحضرها إلى مدينة داود ريثما يتم بناء قصره وبيت الرب والسور المحيط بأورشليم " (ملوك الأول : ٣)

وهذا يؤكد كذب النقاء الجنسي الذي يدعيه اليهود ، فموسى قد تزوج من غير بني إسرائيل وكذلك فعل كثير من بني إسرائيل .

وامتدَّ سلطان سليمان " على جميع الممالك الواقعة ما بين نهر الفرات إلى أرض الفلسطينيين وحتى تخوم مصر .. ووهب الله سليمان حكمة وفهما فائقين ، ورحابة صدر غير متناهية وتفوقت حكمة سليمان على جميع أبناء المشرق وكل المصريين فكان أكثر حكمة من جميع الناس " (ملوك الأول : ٤) .

سليمان يبني بيت الرب (الهيكل)

وبعد أن وطَّد سليمان ملكه واستقر حكمه بدأ في بناء الهيكل الذي لم يستطع أن يبنيه أبوه داود بسبب حروبه التي خاضها " أن أبي داود لم يستطع أن يبني بيتا لاسم الرب إلهه من جرَّاء الحروب التي خاضها ، حتى أظفره الرب بأعدائه وأخضعهم له أما الآن وقد أراحني الرب من كل جانب ، فليس من ثائر أو حادثة شر .ها أنا قد نويت أن أبني بيتا لاسم الرب إلهي كما قال الرب لداود أبي : إن ابنك الذي يخلفك على عرشك هو يبني بيتا لاسمي العظيم " (ملوك الأول : ٥)

وسخَّر الملك سليمان مائة وثلاثة وثمانين ألفا وثلاثمائة رجل (١٨٣٣٠٠) من أرجاء إسرائيل لبناء الهيكل وهم على النحو التالي : ثلاثون ألف رجل لإحضار

الخشب من لبنان ، و " سبعون ألفا من حمَّالي الخشب وثمانون ألفا من قاطعي الحجارة في الجبل ، ما عدا ثلاثة آلف وثلاث مئة من المشرفين على هؤلاء العمال " (ملوك الأول : ٥)

وبعد أن أتمَّ سليمان بناء الهيكل أوحى الرب إليه " بشأن الهيكل قائلا : " أما ما يتعلق بهذا الهيكل الذي شيدته ، إن سلكت في فرائضي وطبقت أحكامي وأطعت وصاياي ، ومارستها فإنني أحقق وعودي التي وعدت بها داود أباك وأقيم وسط شعبي إسرائيل ولا أتخلى عنه " (ملوك الأول : ٦)

" وبنى سليمان قصره في ثلاثة عشر سنة ، وشيد قصرا عاما دعاه قصر غابة لبنان " (ملوك الأول : ٧)

وبعد أن جهز سليمان الهيكل الرب وقصر الملك وأتم زخرفتهما على الوجه الأكمل في عشرين عاما " أخذ سليمان مدخرات أبيه داود من فضة وذهب وأوان ، التي كرَّسها لهيكل الرب ، ووضعها في خزائن الهيكل " (ملوك الأول : ٨)

نقل تابوت العهد من صهيون إلى الهيكل

" جمع سليمان جميع رؤساء بني إسرائيل وكل الأسباط والعشائر في أورشليم ، لنقل تابوت عهد الرب من صهيون مدينة داود إلى الهيكل .. وأخل الكهنة تابوت عهد الرب إلى مكانه في محراب الهيكل في قدس الأقداس .. ولم يكن في التابوت سوى لوحي الحجر اللذين وضعهما موسى في حُورِيب حين عاهد الرب أبناء إسرائيل بعد خروجهم من ديار مصر وما إن خرج الكهنة من قدس الأقداس حتى ملأ السحاب هيكل الرب فلم يستطع الكهنة القيام بالخدمة من جرَّاء السحاب ، لأن مجد الرب ملأ الهيكل " (ملوك الأول : ٨)

وأخذ يبتهل سليمان للرب قائلا : " .. استمع إلى ابتهال عبدك وشعبك إسرائيل الذين يُصَلُّون في هذا المكان .. إذا انهزم شعبك أمام عدوهم من جرَّاء خطيئتهم ، ثم تابوا معترفين باسمك وصلُّوا متضرعين إليك في هذا الهيكل فاستجب أنت من السماء واصفح عن خطيئة شعبك إسرائيل ، وأرجعهم إلى الأرض التي وهبتها لآبائهم .. "

(ملوك الأول : ٨)

عهد الرب مع سليمان

" إن سلكت أنت أمامي كما سلك أبوك داود بكمال القلب والاستقامة وطبقت كل ما أمرتك به ، وأطعت فرائضي وأحكامي ، فإني أثبِّت كرْسِّي ملكك على إسرائيل إلى الأبد ، كما وعدت أباك داود قائلا : " لا ينقرض من نسلك من يملك على عرش إسرائيل . إما إن انحرفتم أنتم أو أبناؤكم عن اتِّباعي ، ولم تطيعوا وصاياي وفرائضي التي سننتها لكم ، وغويتم عابدين آلهة أخرى وسجدتم لها ، فإني أُبيد إسرائيل عن وجه الأرض التي وهبتها لهم ، وأَنْبذ الهيكل الذي قدَّسته لاسمي ، فيصبح إسرائيل مثلا ومَثَار هُزْء لجميع الأمم . ويصبح هذا الهيكل عِبرة يثير عَجَب كل مَن يمر به ، فَيَصْفُر ويتساءَل : " لماذا صنع الرب هكذا بهذه الأرض وبهذا الهيكل ؟ " فيأتيهم الجواب : " لأنهم تركوا الرّب إلههم الذي أخرج آباءهم من ديار مصر ، وتشبثوا بآلهة أخرى وسجدوا لها وعبدوها ، لذلك جَلَب الرب عليهم كل هذا البلاء "

(ملوك الأول : ٩)

والسؤال هنا من المسئول عما جرى لبني إسرائيل بعد ذلك من هلاك ، ونبذ للهيكل، واستهزاء جميع الأمم بهم ؟

أليس هم أنفسهم المسئولون عن كل ما جرى ويجري لهم بسب فسادهم وارتكابهم الشر في عيني الرب ؟

تسخير سليمان للأمم من غير بني إسرائيل

بعد أن أتمَّ سليمان بناء " كل ما رغب فيه في أورشليم وفي لبنان وفي جميع أرجاء سلطنته . أما من تبقى من الأموريين والحثِّيين والفَرِزِّيِّين و الحِوِّيِّين واليَبُوسيين الذين لا ينتمون إلى بيني إسرائيل ، من ذَرَاري الأمم التي عجز الإسرائيليون عن إفنائهم ، فقد فرض عليهم سليمان خدمة التسخِير كالعبيد إلى هذا اليوم . أما أبناء إسرائيل فلم يُسخِّر سليمان منهم أحداً ، لأن منهم كان يتالف جنوده ورجال حاشيته وأمراؤه وضباطه قادة مركباته وفرسانه ن وكان عدد المُوَكَّلِين على الإشراف على خدمة العُمال المُسخَّرين لتنفيذ أعمال سليمان خمس مئة وخمسين رجلا " (ملوك الأول : ٩)

ما الفرق بين ما صنعه سليمان بغير بني جنسه من الأمم الأخرى ، وما صنعه فرعون مصر الذي اضطهد غير المصريين من بني إسرائيل ؟!!

وكيف يلوم بنو إسرائيل المصريين على ما فعلوه بهم من تسخير – ترحموا عليه بعد ذلك – بعدما صنع ملكهم سليمان ذلك ؟!

العجيب أن توراة اليهود تقول أن الإسرائيليين عندما عجزوا عن إفناء غيرهم من الأمم الأخرى سخَّروهم ، أي أنه كان بود الإسرائيليين إفناء غيرهم من الأمم عندما تمكنوا منهم لكنهم عندما عجزوا عن إفنائهم سخَّروهم ! وبعد ذلك يقولون لك أنهم هم ضحية الأمم الأخرى وهذا قانون إلههم في الحرب .

تعاليم الرب لبني إسرائيل في الحرب

لم تكن الحرب لدى بني إسرائيل حربا مقدسة لنشر عبادة الله الواحد الأحد ، ولا لنشر مبادئ الحق والخير والجمال ، إنما كانت حربا تترية وحشية وهاك تعاليم نبيهم صموئيل لملكهم شاول .

" قال صموئيل لشاول (١) :

" أنا الذي أرسلني لأنَصِّبَنك ملكا على إسرائيل ، فاسمع الآن كلام الرب . هذا ما يقوله رب الجنود : إني مزمع أن أعاقب عماليق جزاء ما ارتكبه في حق الإسرائيليين حين تصدى لهم في الطريق عند خروجهم من مصر . فاذهب الآن وهاجم عماليق واقضِ على كل ماله . ولا تعفُ عن أحد منهم بل اقْتُلْهم جميعا رجالا ونساء ، وأطفالا ورُضَّعا ، بقرا وغنما ، جِمالا وحميرا " (صموئيل الأول : ١٥) .

وليست هذه التعاليم قاصرة على شاول فحسب بل هي شريعة التزم بها كل ملوك بني إسرائيل فقد رأينا ما فعله سليمان ، وإليك ما فعله داود بعد أن انتصر على رِبَّة عَمَّون واستولى على عاصمة المملكة " استعبد أهلها وفرض عليهم العمل بالمعاول والمناشير والفؤوس وأفران الطوب . وعامل جميع أهل مدن العَمُّونيين بمثل هذه المعاملة " (صموئيل الثاني : ١٢)

زوجات سليمان

كان سليمان – التواراتي – مزواجا لدرجة أنه كان تحته ألف امرأة من مختلف الجنسيات " وأولع سليمان بنساء غَرِيبات كثيرات ، فضلا عن ابنة فرعون ، فتزوج نساء موآبيات وعَمُّونِيَّات وأَدُومِيَّات و صِيدُونِيَّات وحِثِّيَّات ، وكلهن من أبناء الأمم التي نهى الرب بني إسرائيل عن الزواج منهن قائلا لهم : " لا تتزوجوا منهم ولا هم منكم ، لأنهم يُغْوُون قلوبكم وراء آلهتهم " ولكن سليمان التصق بهن لفرط محبته لهن . فكانت له سبع مئة (٧٠٠) زوجة ، وثلاث مئة (٣٠٠) مَحْظِية " (ملوك الأول:١١)

إذن لا كلام يسمع بعد ذلك عن نقاء عنصر بني إسرائيل بعدما تزوج موسى من ابنة كاهن مِديان " صفُّورة وإنجابه منها " وقَبِل موسى أن يقيم مع الرجل (كاهن

(١) كان صموئيل هو الزعيم الروحي لبني إسرائيل في ذلك الوقت ، أما شاول مسئول الشئون المدنية والإدارية والعسكرية

مِديان) الذي زوجه من ابنته صَفُّورة . فأنجبت له ابنا دعاه جِرشوم (ومعناه غَريب) إذ قال " كنت نزيلاً في أرض غريبة " (الخروج : ٢)

كما تزوج داود من بَثْشَبَع بنت أليعام زوجة أُوريا الحِثِّيِّ (١)

" وعندما علمت زوجة أوريا أن زوجها قد قتل ناحت عليه وحين انقضت فترة الحداد ، أرسل داود وأحضرها إلى القصر وتزوجها وولدت له ابنا ولكن الرب استاء من هذا الأمر الذي ارتكبه داود " (صموئيل الثاني : ١١)

" ثم توجه داود إلى بثشبع وواساها وضاجعها ، فولدت له ابنا دعاه سليمان وأحب الرب الولد " (صموئيل الثاني : ١٢)

معصية سليمان وغضب الرب عليه

استطاعت الألف امرأة اللاتي تزوجهن سليمان من غير الإسرائيليات " في زمن شيخوخته أن يغوين قلبه وراء آلهة أخرى ، فلم يكن قلبه مستقيما مع الرب إلهه كقلب داود أبيه وما لبث أن عبد عشتاروث آلهة الصِّيدُونيِّين ، ومَلْكُوم إله العَمُّونيين البغيض ، وارتكب الشر في عين الرب ، ولم يتبع سبل الرب بكمال كما فعل أبوه داود . وأقام على تل شرقي أورشليم مرتفعا لِكَمُوش إله المُوآبيين الفاسق ، ولِمُولَك إله بني عَمُّون البغيض . وشيد مرتفعات لجميع نسائه الغَرِيبات ، اللواتي رحن يوقدن البخور ويقربن المحرقات لآلهتهن " (ملوك الأول : ١١) .

---

(١) الحقيقة أني لم أقف على أصل بثشبع هل هي من بني إسرائيل أم من سواهم من الأمم إنما من المؤكد أن زوجها الأول أُوريا الحِثِّيِّ ليس من بني إسرائيل فهو من الحثيين ، فإن كانت بثشبع من بني إسرائيل فكيف تتزوج بغير إسرائيلي – وهو ممنوع وفقا لشريعتهم والتي كثيرا ما يخرجون عليها فيتزوجون من غير بني إسرائيل – وإن كانت غير إسرائيلية فكيف يتزوجها داود ؟!

هل يعقل هذا ؟! سليمان الذي بنى بيت الله الوحيد " الهيكل " وسخر لبنائه أكثر من مائة وثلاثة وثمانين ألفا من بني إسرائيل ، وانفق عليه ما إن أنفق على جميع البشر ما بقي فقير على وجه البسيطة يعبد الأصنام : عشتاروث ، وملكوم ، وكموش، ومولك من دون الله !!

سليمان الذي وصلت مملكة إسرائيل في عهده إلى أقصى امتداد لها " جميع الممالك الواقعة ما بين نهر الفرات إلى أرض الفلسطينيين وحتى تخوم مصر . " يعبد آلهة هذه البلاد ويكفر بإلهه الذي ساعده على امتلاكها !!

سليمان الذي وهبه الرب الحكمة والفهم يعبد الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عنه شيئا " ووهب الله سليمان حكمة وفهما فائقين ، ورحابة صدر غير متناهية وتفوقت حكمة سليمان على جميع أبناء المشرق وكل المصريين فكان أكثر حكمة من جميع الناس " (ملوك الأول : ٤) .

وعيد الرب لسليمان

وكان أن غضب الرب على سليمان بسبب عبادته للأصنام " لهذا قال الله لسليمان: " لأنك انحرفت عني ونكثت عهدي ، ولم تطع فرائضي التي أوصيتك بها ، فإني حتما أمزق أوصال مملكتك ، وأعطيها لأحد عبيدك " (ملوك الأول : ١١)

السبي الآشوري (سنة ٧٢٢ ق.م)

ويموت سليمان وينازع بنو إسرائيل أمر الحكم بينهم وينقسمون شيعا كل فريق بما لديهم فرحون . وبسبب عنادهم ، وكفرهم ، وعصيانهم أوامر الرب سلط الله عليهم من ينتقم منهم .

" إن شعب إسرائيل شعب عنيد كعجلة جامحة ، فكيف يرعاهم الرب كحمل في مرج رحب ؟ إن أفرايم مكبل بعبادة الأصنام ، فاتركوه وحيدا .

وحالما ينضب خمرهم ينغمسون في فسادهم مفضلين العار على الشرف ، قد صرتم الريح في أجنحتها ، وأنزلتْ بهم ذبائحُهُم الوثنيةُ العارَ .

اسمعوا هذا أيها الكهنة وأنصتوا يا شعب إسرائيل . وأصغوا يا أهل بيت الملك ، لأن القضاء حالٌ بكم إذ كنتم فخا في المصفاة وشبكة منصوبة على جبل تابور ... أرض أفرايم ستصبح خرابا في يوم القضاء ، وبين أسباط إسرائيل أظهرت ما هو يقين.

قد صار رؤساء يهوذا مُتَعَدِّين كالذين ينقلون تُخُومَ الأرض ليسلبوا سواهم لهذا سأصب عليهم سخطي كالماء لقد لحق الضيق بإسرائيل ، وسحقه القضاء لأنه وطد العزم على الغواية وراء الأوثان لهذا سأكون كالعُثِّ لإسرائيل وكالسوس الناخر لشعب يهوذا ... إني سأكون كالأسد المفترس لإسرائيل ، وكالشبل لأبناء يهوذا أفترس وأمضي . أخطف ولا من منقِذ " (هوشع : ٤ ، ٥)

ويعاقبهم الله على فسادهم ، ورفضهم التوبة إلى الله فيرسل ملك أشور عليهم ويعمل فيهم السيف ومن بقي حيا سباه إلى مملكة أشور .

" رفضوا أن يتحولوا إلى تائبين لذلك لن يرجعوا إلى مصر بل يصبح أشور ملكا عليهم يهجم السيف على مدنهم ويلتهم أرْتاج بواباتها ، ويهلكهم لمشوراتهم الخاطئة قد وطد شعبي العزم على الارتداد عني لهذا ولو استعانوا بالعليِّ فإنهم لا يجدون من يرفع النير عنهم " (هوشع : ١١)

وينفذ الرب تهديده ويرسل إليهم من يفتك بالسامرة ومن فيها .

" اعتلى هوشع بن أَيْلة عرش إسرائيل في السامرة تسع سنوات . وارتكب الشر في عيني الرب ، إلا أنه كان أفضل قليلا من أسلافه ملوك إسرائيل . وزحف عليه شَلْمَنْأَسَر ملك أشور . فصار هوشع له تابعا يدفع له الجزية .

وما لبث أن اكتشف ملك آشور خيانة هوشع ، الذي أرسل وفدا يستغيث بِسَوَا ملك مصر ، ولم يؤد جزية لملك أشور كعهده في كل سنة فقبض عليه ملك أشور وزَجَّه موثقا في السجن . واجتاح ملك أشور أرض إسرائيل وحاصر السامرة ثلاث سنوات وفي السنة التاسعة من حكم هوشع سقطت السامرة ، فسبى ملك أشور الإسرائيليين إلى أشور ..

وقد حلت هذه النكبة ببني إسرائيل لأنهم أثموا في حق الرب إلههم الذي أخرجهم من ديار مصر من تحت نير فرعون وعبدوا آلهة أخرى .. وأقاموا لأنفسهم أنصابا وتماثيل لعشتاروث على كل مرتفع .. واقترفوا الموبقات لإغاظة الرب ، عابدين الأصنام التي حذرهم ونهاهم الرب عنها .. ولكنهم أصموا أذانهم وأغلظوا قلوبهم كآبائهم الذين لم يثقوا بالرب إلههم وتنكروا لفرائضه وعهده الذي أبرمه مع آبائهم وتجاهلوا تحذيراته ونواهيه لهم وضلوا وراء أصنام باطلة فأصبحوا هم أنفسهم باطلين .

فاحتدم غضب الرب على إسرائيل ، وطرهم من حضرته ، ولم يبق سوى سِبط يهوذا . ولكن حتى سبط يهوذا لم يحفظ وصايا الرب إلهه بل نهج في طُرُق إسرائيل التي سلكتها . فنبذ الرب كل ذرية إسرائيل وأذلهم وأسلمهم ليد آسريهم وطرهم من حضرته .. فَسُبِيَ الإسرائيليون من أرضهم إلى أشور إلى هذا اليوم .. ونقل ملك أشور أقواما من بابل وكوث وعوَّا وحماة وسفروايم ، وأسكنهم مدن السامرة محل بني إسرائيل فستولوا على السامرة وأقاموا مدنها "(ملوك الثاني:١٧)

السبي البابلي (سنة ٥٨٦ ق.م)

وبدلا من اتعاظ بقية مدن إسرائيل بما أحدثه ملك أشور بالسامرة وأهلها راحوا يتمادون في غيهم وفسادهم فأوحى الرب إلى نبيهم ميخا أن أنذر كل من مملكة يهوذا ومملكة إسرائيل ([1]) بخراب أورشليم بسبب فساد شعب إسرائيل

[1] – بعد موت سليمان نفذ الرب تهديده لسليمان بأن مزق مملكته إلى مملكتين هما : مملكة يهوذا وعاصمتها أورشليم ، ومملكة إسرائيل وعاصمتها السامرة .

" استمعوا هذا يا رؤساء بيت يعقوب وقضاة شعب إسرائيل الذين يكرهون العدل ويحرفون الحق . الذين يبنون صهيون بالدم وأورشليم بالظلم . إذ يحكم رؤساءكم بالرشوة ، وكهنتها يعلِّمون بالأجرة ويتعاطى أنبياؤهم العَرَافة لقاء المال ، ومع ذلك يدعون الاتكال على الله قائلين : أليس الرب في وسطنا ؟ لذلك لن يصيبنا مكروه . لهذا من جرَّاء أعمالكم ستحرث صهيون كالحقل وتصبح أورشليم كومة من الخرائب ، وجبل الهيكل مرتفعا تنمو عليه أشجار الغاب " (ميخا : ٣)

" ثم قال الرب على لسان عبيده الأنبياء : " لأن منسى ملك يهوذا اقترف جميع هذه الموبقات ، وارتكب شرورا أشد من فظاعة شرور الأموريين الذين كانوا قبله ، وأضل يهوذا فجعله يأثم بعبادة أصنامه ، لذلك يقول الرب إله إسرائيل : " ها أنا أجلب شراً على أورشليم ويهوذا فَتَطِنُّ أُذنا كل من يسمع به . وسأوقع على أورشليم العِقاب الذي أوقعته بالسامرة وبأخآب ونسله . وأمسح أورشليم من الوجود كما يمسح الطبق من بقايا الطعام ثم يقلب على وجهه ليجف . وأنبذ بقية شعبي وأسلمهم إلى أيدي أعدائهم فيصبحوا غنيمة وأسرى لهم ، لأنهم ارتكبوا الشر في عينيَّ واثاروا غضبي منذ خروج آبائهم من مصر إلى هذا اليوم . وزاد منسى فسفك دم أبرياء كثيرين حتى ملأ أورشليم من قصاها إلى أقصاها " (ملوك الثاني : ٢١)

ونفذ رب إسرائيل تهديده لشعب إسرائيل ويهوذا فبعث عليهم رجلا ذا بأس شديد فاحتل أورشليم وأحرق الهيكل وقصر الملك وسائر بيوت أورشليم " وفي اليوم السابع من الشهر الخامس من السنة التاسعة عشرة من حكم الملك نَبُوخَذْنَاصَّر ملك بابل ، قدم نُبوزرادان قائد الحرس الملكي من بابل إلى أورشليم ن وأحرق الهيكل وقصر المَلك وسائر بيوت أورشليم ، وكل منازل والعظماء وهدمت جيوشُ الكلدانيين التي تحت إمرة رئيس الحرس الملكي جميعَ أسوار أورشليم ، وسبى نُبوزرادان بقية الشعب الذي بقي في المدينة ن والهاربين الذين لجأوا إلى ملك بابل وسواهم من السكان ولكنه ترك فيها

فقراء الأرض المساكين ليزرعوها ويفلحوها .. وسبى رئيس الحرس الملكي سريا رئيس الكهنة وصفنيا مساعده وحرَّاس الباب الثلاثة وقبض على خَصِيّ واحد من أهل المدينة ، كان قائدا للجيش وعلى خمسة رجال من ندماء الملك الذين تم العثور عليهم في المدينة وكاتب قائد الجيش المسئول عن التجنيد وستين رجلا من الفلاحين أهل المدينة واقتادهم نُبوزرادان رئيس الحرس إلى ملك بابل المُعَسْكِر في رَبْلة فقتلهم ملك بابل في ربلة في أرض حماة وهكذا سبي شعب يهوذا من أرضه أما بقية الشعب الذين تركهم نبوخذناصر ملك بابل في أرض يهوذا .. فهب جميع الشعب ، صغيرهم وكبيرهم ، ورؤساء الجيوش ، وهربوا إلى مصر خوفا من انتقام الكلدانيين "

(ملوك الثاني : ٢٥)

وتصف لنا توراة اليهود في موضع آخر أسباب السبي البابلي فتذكر أن بني إسرائيل قبل السبي البابلي " ازدادوا تورطا في خيانة الرب ، مقترفين كل رَجَاسات الأمم ، حتى إنهم نجَّسوا بيت الرب الذي قدَّسه في أورشليم .

وأرسل الرب إله آبائهم إليهم رسلا بصورة متوالية محذرا إياهم لأنه أشفق على شعبه وعلى مسكنه .

فكانوا يهزأون برسل الله ، ورفضوا كلامه واستهانوا بأنبيائه ، حتى ثار الرب على شعبه وامتنع كل شفاء .فأرسل إليهم ملك الكلدانيين فقتل نُخْبَتَهم بالسيف في عُقْر الهيكل المقدس ، ولم يرحم الرب فتى أو عذراء أو شيخا أو أشيب بل أسلمهم جميعا ليد الكلدانيين الذين استولوا على آنية بيت الله كبيرها وصغيرها ، وخزائن قادته ونقلوها كلها إلى بابل .

وأحرقوا الهيكل وهدموا سور أورشليم وأشعلوا النار في جميع قصورها ، ودمروا تحفها الثمينة .

وسبى نبوخذناصَّر الذين نجوا من السيف إلى بابل فأصبحوا عبيدا له ولأبنائه إلى أن قامت ملكة فارس " (أخبار الأيام الثاني : ٣٦)

" قال الرب لزكريا : " هذا ما يقوله الرب القدير ، اقضوا بالعدل ولْيُبْدِ كل منكم إحسانا ورحمة لأخيه . ولا تجورا على الأرملة واليتيم والغريب والمسكين ولا يضمر أحدكم شرا في قلبه لأخيه . ولكنهم أبوا أن يصغوا ، واعتصموا بعنادهم غير عابئين ، وأصموا آذانهم لئلا يسمعوا . وقسُّوا قلوبهم كالصوَّان لئلا يسمعوا الشريعة التي أرسلها الرب القدير بروحه على أنبيائه السابقين . فانصب غضب عظيم من لدن الرب القدير . وكما ناديت فلم يسمعوا فإني أنا أيضا لا أسمع ، يقول الرب القدير . فبددتهم بالزوبعة بين الأمم التي لم يعرفوها من قبل فصارت الأرض التي نفوا منها خرابا لا يجتازها ذاهب أو راجع ، وأضحت الأرض المبهجة قفرا " (زكريا : ٧)

عودة اليهود من السبي

ثم عفا الله عنهم وأعادهم إلى أورشليم لعلهم يشكرون نعم الله عليهم ولا يعودون إلى نبذ شريعته وحربه مرة ثانية .

" وفي السنة الأولى لحكم قورش ملك فارس ، وتتميما لكلام الرب بفم إرميا ، حرَّك الرب قلب قورش فأطلق نداء في كل أنحاء مملكته قائلا " هذا ما يقوله قورش ملك فارس : الرب إله السماء وهبني جميع ممالك الأرض ، وأمرني أن أبني له هيكلا في أورشليم التي في يهوذا ، وعلى كل واحد من شعب الرب أن يرجع إلى هناك ، وليكن الرب معكم " (أخبار الأيام الثاني : ٣٦)

لكن بني إسرائيل ما شكروا نعم الله عليهم بل لما عادوا إلى أورشليم عادوا يرتكبون نفس المعاصي ويتعرضون لنفس المشكلات التي تعرضوا لها سابقا فقد أهملوا العبادة وظلم الواحد منهم قريبه .

" وارتفع صراخ الشعب ونسائهم احتجاجا على إخوتهم اليهود المستغلِّين ... وحين سمعت صراخ شكواهم وكلامهم غضبت جدا وبعد أن تدبرت الأمر في نفسي عنفت الأشراف والولاة قائلا : " إنكم تأخذون الربا من إخوانكم " ثم عقدت اجتماعا عظيما لمقاضاتهم وقلت لهم : " إننا بحسب طاقتنا افتدينا بالأموال إخوتنا اليهود الذين بيعوا للأمم ، وها أنتم تبيعون إخوتكم لهم ، وهم يعودون فيبيعونهم لنا " فسكتوا ولم يجدوا جوابا " (نحيما : ٥)

وتلخص توراة اليهود قصة شعب إسرائيل عبر تاريخه :

" وأوحى إليَّ – إي حزقيال – بكلمته قائلا " يا ابن آدم ، عندما أقام شعب إسرائيل في أرضهم نجسوها بطرقهم الشريرة وتصرفاتهم .

كانت طريقهم أمامي نجسة كنجاسة الطامث فسكبت غضبي عليهم جرَّاء ما سفكوا من دم على الأرض التي نجسوها بأصنامهم ففرقتهم بين الأمم وشتتهم في البلدان ، ودنتهم بمقتضى طريقهم وتصرفاتهم .

وحين استقروا بين الأمم التي تفرقوا بينها دنَّسوا اسمي القدوس إذ قيل لهم : هؤلاء شعب الرب وقد طردوا من أرضه .

فغرت على اسمي الذي نجسه شعب إسرائيل بين الأمم التي تفرقوا بينها .

لذلك قل لشعب إسرائيل : ليس لأجلكم أنا موشك أن أعمل (عظائم) يا شعب إسرائيل ، بل غيرة على اسمي الذي دنستموه بين الأمم التي تفرقتم بينها فأقدس اسمي العظيم الذي صار بسببكم منجسا بين الأمم التي تفرقتم بينها فتدرك الأمم أني أنا الرب حين أتقدس فيكم أمام أعينهم يقول السيد الرب إذ آخذكم من بين الأمم وأجمعكم من كل البلدان وأحضركم إلى أرضكم وأرش عليكم ماء نقيا فتطهرون من

كل نجاساتكم ومن أصنامكم ... ولهذا اعلموا أنه ليس من أجلكم أنا أفعل هذا ، يقول السيد الرب فاخجلوا واخزوا من طرقكم يا شعب إسرائيل " (حزقيال : ٣٦)

ويفي الله بوعده – الذي لا يستحقوه – لبني إسرائيل ويعيدهم بعد السبي البابلي إلى أورشليم لعلهم يتقون الله ولا يعودون إلى رجاساتهم مرة أخرى ولكن هيهات هيهات فما إن استقروا في أورشليم وأعادوا الهيكل حتى عادوا إلى سابق عهدهم .

وطالبهم الله تعالى بالتوبة ليتوب عليهم فلم يتوبوا أنذرهم بنقص في الأموال والأنفس والثمرات فلم يتوبوا ، وأخيرا ضربهم الله بالأوبئة .

" قد جعلت الجوع يعم مدنكم ، فلم تتسخ أسنانكم بالطعام ! وأفقرتكم إلى الخبز في كل أماكن سكناكم ، ولكنكم لم ترجعوا إليَّ تائبين ، يقول الرب : منعت عنكم المطر ولم يكن قد بقي للحصاد سوى ثلاثة أشهر ، وأمطرت على مدينة دون مدينة ، وعلى حقل دون الآخر .. ومع ذلك لم ترجعوا إليَّ تائبين ، يقول الرب :

أرسلت الرياح اللافحة واليرقان لتجفف محاصيلكم وكرومكم وأشجار تينكم وزيتونكم وما رجعتم إليَّ ! أصبتكم بالأوبئة التي أصبت بها مصر ، وقضيت على شبابكم بالسيف وسبيت خيولكم ، وجعلت نَتْن معسكركم يزكم أنوفكم ولكنكم لم ترجعوا إليَّ تائبين يقول الرب :

دمرت بعض مدنكم كما دمَّر الله سدوم وعمورة فكان من نجا منكم كشعلة منتشَلَة من النار ولكنكم لم ترجعوا إليّ تائبين " (عاموس : ٤)

ويستمر المسلسل على هذا المنوال فساد من بني إسرائيل وعقاب من الله ، وكثيرة هي النصوص الناطقة بهذا .

ويقيم الله الدعوى على بني إسرائيل قبل معاقبتهم ، ويلزمهم الحجة على استحقاقهم هذا العقاب جاعلا الجبال والأرض شاهدا على هذه المحاكمة

" استمعي يا جبال إلى شكوى الرب ، وأصغي يا أُسُس الأرض الثابتة ، فإن لدى الرب شكوى على شعبه وهو يحكم إسرائيل .

بماذا أسأت إليك يا شعبي ، وبما ضايقتك ؟ أجبني . لقد أخرجتك من ديار مصر وافتديتك من بيت العبودية ، وأرسلت أمامك موسى وهارون ومريم اذكر يا شعبي ما تآمر به عليك بالاق ملك موآب ، وما أجابه به بلعام بن بعور . واذكر ما أحسنت به إليك في رحلتك من شِطِّيم إلى الجِلْجَال لكي تدرك عدل الرب "

وبعد أن عدد الله نعمه على بني إسرائيل يطلب منهم في مقابل ذلك أن يتوخوا العدل ، ويحبوا الرحمة ، ويتواضعوا لعظمة الله

" لقد أوضح لك الرب أيها الإنسان ما هو صالح ، وما يبتغي منك سوى أن تتوخى العدل ، وتحب الرحمة ن وتسلك متواضعا مع إلهك ؟ "

ومع ذلك فإن كثيرا من بني إسرائيل لم يستجيبوا لأوامر الله فسرقوا ، وطففوا الموازين ، وكذبوا ، وغشوا ... لذا استحقوا عقاب الله لهم توعدهم الله بخراب بيوتهم ، واحتقار الأمم لهم

" صوت الرب ينادي في أرجاء المدينة ومن الحكمة أن يُتَّقَى اسمك . استمعوا يا أهل المدينة وأعضاء مجلسها : في بيوت الأشرار كنوز مسروقة وموازين مغشوشة فكيف أبرئ ذا المعايير المغشوشة ، صاحب كيس الموازين الناقصة ؟ قد امتلأ أثرياء المدينة ظلما ، ونطق سكانها بالكذب وألسنة الغش في أفواههم لذلك شرعت في تدميرك لأجعلك خرابا من أجل خطاياك .

ستأكلين ولا تشبعين ، ويظل جوفك خاويا ، وما تدخرينه تعجزين عن الاحتفاظ به لأني أدفعه للسيف . تزرعين ولا تحصدين . تعصرين الزيتون ولا تدهني بزيته

وتعصرين العنب ولا تشربين من خمره لأنك قد مارستِ فرائض عمري ، ونهجتِ على غرار أَخآب ، وسلكت مشوراتهم . لذلك أجعلك خرابا ، وشعبك مثار سخرية ، وتقاسون من احتقار الأمم " (ميخا : ٦)

***